الوعاظ والخطباء

للأستاذ على الطنطاوى

تواردت الخواطر والأقلام (فى أجزاء الرسالة الأخيرة) على نقد أساليب الوعاظ فى الدعوة إلى الله ، فساء ذلك بعض الواعظين عندنا ، ولو فكروا فى منزاه وما يلزم منه لسرهم ، ولعلموا أنه لولا الاعتراف بخطر الوعظ وأهله ، ومنزلتهم من الأمة ، وعلو قدرهم عند العامة ، ما كتب فى (الرسالة) عنهم ، ولا اشتغل الكتاب بنقدهم . ثم إن أولى ما ينبغى أن يتحلى به الواعظ أن يبدأ بنفسه فيعظها ، وأن يخلص قوله لله وعمله ، وأن يفرغ من شهوات نفسه ، فلا تملكه شهوة الشهرة والجاه ، ولا شهوة الغنى ولا شهوة النساء ، وأن يكون فى فعله أوعظ منه فى قوله ، فلا يأمر الناس بالزهد ثم يخالفهم إلى ما زهدهم فيه فيزاحم المتكالبين عليه ، ولا يتظاهر بالدين ابتغاء الدنيا وتوصلاً إليها ، فيجمع من حوله العاملين على الكسب الحلال ، والجادين فى جمع المال من حله ، ليأخذ من أموالهم ما يتعالى به عليهم ، وليذوق لذائذ العيش من عطاياهم ، وليسلبهم فوق ذلك حريتهم وعقولهم وكرامة أنفسهم عليهم ، فيصرفهم فى مآربه ، ويسيرهم حيثما شاء ، ويذلهم بين يديه ليستكبر عليهم ، ويجعل الدين وسيلة إلى ذلك ، فيجعل طاعة نفسه من طاعة الله ، بل ربما جعل نصيبها من هذا الشرك أكبر ، والعياذ بالله من ذلك .

ولقد حدثنى من أقطع بصدقه أنه سمع مرة واعظاً من هؤلاء (يقص) على تلاميذه قصة مريد سمع شيخه يقول : يا ألله ، ثم يمشى (زعم القاص) على وجه الماء الجارى ، فسأله أن يتبعه ، فقال له الشيخ : قل يا شيخى فلان (يعنى الشيخ نفسه) ثم اتبعنى فإنك تمشى مثلى . ففعل المريد ذلك ، وتابعه أياماً ، ثم خطر له (يقول الواعظ) أن يقول : (يا ألله) ، مكان قوله : (يا شيخى) فقالها فغرق فى الماء ، ومات ...

فهل يشك مسلم فى أن هذا الوعظ مخالف للاسلام مباين له ؟ وهل يغضب الواعظ العالم الصادق أن ينتقد الواعظ الجاهل المتخرق الكذاب ؟ أو ليس من دأب الواعظ الصادق أن يتقبل النصيحة ويشكر عليها ويعمل بها ؟ وأن يتخلص من شرور نفسه قبل أن يتصدر للوعظ والإرشاد ،

العربية ووجود ألفاظ أعجمية الشيء الذى كان منتشراً فى مصر والشام فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم تذرع الدكتور رستم بأدلة أخرى ، فتأكد من محفوظات عابدين أن شريف باشا كان حاكماً عاماً على الشام من أوائل ١٢٤٨ هـ إلى أواخر ١٢٥٦ هـ . وعرف من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس أن أحمد أغا دزدار كان قائماً بأعمال المتسلمية فى القدس فى ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ . وثبت أيضاً من أن محمد شريف باشا كان يسيطر على جميع حكام مقاطعات الشام ومن بينهم متسلم القدس أحمد أغا دزدار ، ومن أنه كان يتلقى الأوامر من محمد على باشا وإبراهيم باشا لكى يبلغها للجهات المختصة . ووجد الدكتور رستم أيضاً أن محتويات هذه الوثيقة تتفق مع المعلومات المعروفة عن علاقة اليهود بالبراق وموقف المسلمين منهم من ناحية إباحة اليهود زيارته وتساهل حكومة محمد على الذى جعلهم يتطلعون للحصول على الإذن بتبليط البراق . وانتهى بحث الدكتور أسد رستم بإثبات صحة هذه الوثيقة من الوجهة الفنية التاريخية سواء من ناحية الورق والحبر والقلم وعادات المراسلة واللغة والأسلوب ، أو من ناحية شخص المرسل والمرسل إليه ، أو من ناحية مطابقة واتفاق معلوماتها مع الظروف التاريخية[1]

وهذه أمثلة عملية تبين أهمية وطريقة نقد الأصول التاريخية من ناحية إثبات صحتها وأصالتها وخلوها من الدس والتزوير والانتحال[2] ؛ وبغير ذلك لا يستطيع المؤرخ أن يعمل لأنه إذا بنى أبحاثه على الأصول المزورة خرج بنتائج بعيدة عن الحقيقة ومخالفة للواقع التاريخى . وسوف نبحث فى المقالات التالية نقد الأصول من نواح أخرى

(يتلى)

حسن عثمان

---

(١) أسد رستم : مصطلح التاريخ : ص ١٦ — ٢٧

(٢) لم أذكر شيئاً من الأمثلة العملية التى قمت بها وإنى أرجىء ذلك حتى أنشر الوثائق التى تحت يدى

حتى يكون الإسلام هو الذى يتكلم على لسانه ، وحتى يتوهم السامعون أن ملكا هو الذى يعظهم ، أو جسداً إنسانياً ضم روح ملك من الملائكة قد ارتفع عن شهوات الأرض ليتصل بكمالات السماء ، وأنه لا يزهدهم فى دنياهم ليحوزها من دونهم ؟ فإن أنصوا منه غير ذلك زهدوا فيه هو وفى وعظه ...

كان فى مسجد من مساجد دمشق خطيب جهير الصوت ، طلق اللسان ، ممتزل مستور ، يعتقد الناس إخلاصه ودينه وتخطيه أهواء نفسه ماشياً قدماً على صراطه المستقيم ، صعد المنبر جمعة من الجمع ، فاستهل خطبة بآية من القرآن فيها وعيد للكافرين شديد ، ومضى من بعدها يبرق ويرعد ، ويسوق الجمل آخذاً بعضها برقاب بعض ، وكلها من مادة (كفر يكفر ...) حتى إذا ظن أنه أقنع وأشبع ، وملأ نفوس السامعين سخطاً وغضباً ، عمد إلى التصريح بعد التلويح ، فإذا الذى انصبت عليه هذه الحمم ، ونالته رجوم الشياطين ، (رجل تجرأ على دين الله ، فتكلم فى الداعين إليه ، والدالين عليه ، ومن رضى منهم الله وعقلاء خلقه : خطباء المساجد) . فلما قضيت الصلاة استقرى الناس الخبر فإذا هو صاحب جريدة كتب مقالاً معتدلاً فى الدعوة إلى إصلاح الخطب المنبرية ، فبعث الخطيب بمقالة يرد بها عليه فلم ينشرها وإنما أشار إليها ، فكان جزاؤه أن تكون الخطبة كلها فى ذمه وتكفيره . فانصرف الناس من يومئذ عما كانوا يعتقدون فى الخطيب ولم يعد يبلغ وعظه ذلك المبلغ من نفوسهم ، وجعلوا يرون فيه خطيباً له (نفس) ، وهيهات ينفع واعظ أو خطيب له (نفس) ...

فتعالوا أنبئونى من الذى جعل المنبر ملكاً لهذا الخطيب ، يتصرف فيه تصرفه بثوبه ودابته ، ويجعله سلماً له إلى شهوته وشهوته ، وهذا المنبر إرث رسول الله ، والخطيب خليفته فى الدعوة إلى دين الله واطراح النفس والهوى ؟ ألم يرو الرواة أن علياً أمير المؤمنين رضى الله عنه كان يتبع مشركاً (فى المعركة) ليقتله ، فلما أيس المشرك من الحياة تلفت إلى علىّ فبصق على وجهه ، فكف عنه على ، فقيل له ، فقال رضى الله عنه : كنت أنوى قتله لله وحده ، فلما بصق على خفت أن يكون قد داخلنى غيظ منه ، فخشيت أن يكون قتله انتصاراً لنفسى ، فلذلك كففت عنه . أليس فى هذا الخبر (وإن لم يأت من الثقات) عبرة وأسوة للواعظين ؟

وكيف أستطيع الاتعاظ بالخطيب الذى جاء فى خطبته مرة بحديث موضوع ، فلما انتهت الصلاة وتفرق الناس أقبل عليه شاب من المشتغلين بالحديث والمتقطعين إليه فذكره بأن ذلك الحديث موضوع لا أصل له ، فما كان منه إلا أن رجع من الجمعة المقبلة ، فجعل خطبته فى هذا الشاب وأصحابه (الوهابيين أعداء الرسول ...) وأثار عليهم العامة حتى نالهم شر وأذى . فأين مكان الإخلاص من نفس هذا الخطيب ؟

إن أول شرط للواعظ أو الخطيب أن يكون مخلصاً فى وعظه لله ؛ والشرط الثانى أن يكون عالماً بالعربية ، عارفاً بالتفسير والحديث روايته ودرايته ، والفقه أصوله وفروعه ، وإلا كان وبالاً على الدين وأهله . ولقد أدركت والله من العامة من كان يكور العمامة ، ويطيل اللحية ، ثم يقعد للتدريس فى مسجد دمشق الجامع فيقول ما شاء له الجهل والهوى ويجعله ديناً ، والمفتى والقاضى والعلماء يمرون عليه أو يعلمون به فلا ينكرون عليه ، ولو اعتدى هذا الرجل على جبة أحدهم لأقام عليه الدنيا . أفكان الدين أهون على أحدهم من جبته ؟ وأدركت عامياً آخر ذكياً خدع طائفة من أذكياء البلد وعلمائه فاعتقدوا به ، وتأدبوا بين يديه ، وأخذوا عنه تفسير الآثار . وأعجب من هذا رجل يدعى النبوة يقيم الآن فى غوطة دمشق ، وقد آمن به أكثر فلاحى قرية (حرستا) . ولقد خبرنى من شهد صلاته بأصحابه أنهم يقهقهون ويكركرون كلما جاءت آية نعيم ، ويتصايحون مستبشرين ويهنئ بعضهم بعضاً ، وأنهم يبكون منتحبين مولولين كلما سمعوا فى الصلاة آية عذاب ؟ وربما (أخذ بعضهم الحال) فقفز فى الصلاة أو صاح أو التبط بالأرض . ولهذا المتنبى أو (المتمهدى) ضريبة دائمة على أصحابه يؤدونها إليه باسم الزكاة فيشترى بها العقارات والحقول ...

والشرط الثالث حسن الأسلوب فى الوعظ ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ، وابتغاء طريق اللين واللطف . وللواعظين أسوة فى ذلك بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهم من سيرته قدوة صالحة ، فأين هم عنها ؟ وما لأكثر من عرفنا منهم لا يعرفون إلا طريق العنف والقسوة الذى يبعد الناس عن الدين ، ويغلظ قلوبهم عليه ، وينفرهم منه . فلا ترون فى مجالسهم

شاباً من تلاميذ المدارس مثلاً إلا جعلوا الموضوع فى تفسيق من يحلق لحيته ، ومن يتشبه بالنساء ، وأمثال ذلك ، حتى تأكل هذا الشاب الأنظار ، فيغرق فى عرقه خجلاً ؛ ثم لا يعود إلى المسجد أبداً ؛ ولو أنهم حاسنوه وجاملوه لكان من المتقين .

حضر درس الشيخ « بدر الدين » رحمه الله تعالى شاب حليق حاسر من شبان (المودة) ، وكان الشيخ (على عادته) معرقاً . فقال له أحد الثقلاء من الحاضرين : « سيدى ، ما حكم الشبان الذين يتخنثون ويتشبهون بالنساء ويتزيون بزى الكفار » . فأدرك الشيخ بذكائه النادر أن فى المجلس غريباً ، فرفع رأسه فلمح الشاب ، فدعاه فأجلسه بجواره وأكرمه ، وقال للسائل مؤنباً بأسلوبه الناعم : « يابا . . . هذا يتبارك به » يعنى أن شاباً مثله يطلب العلم ويؤم مجالسه ويستهدى الطريق إلى الله ، أهل لأن يتبرك به أمثال ذلك الثقيل الذين (قطعوا الطريق) إلى الله بتلظهم وغباوة قلوبهم

والشرط الرابع هو أن يعلم الواعظون أنه ليس فى الإسلام طبقة هى أولى بالله من طبقة ، وليس بين العبد وربه وسيط ، وأن الإسلام ليس فيه (رجال إكليروس) ، فإذا علموا ذلك اقتصدوا فى تكفير الناس لأتفه الأسباب ، وراجعوا الآثار الواردة ليعلموا حقيقة الكفر والإيمان ، فلا يرمون بالكفر كل من خالفهم فى رأى أو ناقشهم فى مسألة قد يكون لها وجوه ، ولا يصدرون مثل الكتاب الذى أصدره منذ بضع سنين عالم معروف فى دمشق — كان أصدر قبله بأكثر من عشر سنين كتاباً آخر — كفر فيهما كل من يقول بحركة الأرض ، وكفر الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا ؛ ورد أشنع الرد على ابن حزم والشيخ محمد بخيت المطيعى ، رحم الله الجميع . وأخذ بقوله بعض خطباء المساجد فكفروا على المنابر من يقول إن الأرض دائرة حول الشمس . ولا نسمع أحداً يجعل قيامك للضيف يدخل عليك كالسجود له سواء حكمهما ، لأن كلا منهما (على دعواه) من أركان الصلاة استويا فى ذلك . ونسى أن القعود أيضاً من أركان الصلاة ، أفيحرم قعودك بين يدى صديقك أو أستاذك ؟ ؟

* * *

والخطابة يوم الجمعة من أكبر أبواب الوعظ ، فإذا صلحت صلح بصلاحها فساد الأمة ، وإن فسدت أفسدت . فحتى يتم تنظيم الخطابة ، بحيث يختار لها الكفو العالم ويعدل عن طريق الوراثة فيها ، فلا تنتقل بعد الخطيب إلى ابنه الصغير الذى لا يدرى ما يكون منشؤه ومرباه ، ويقام له وكيل رسمى ؛ بل يعلن عن الخطابة الخالية ، ويجعل بين الطالبين سباق وامتحان ، ثم يتقى أقدرهم عليها وأصلحهم لها . ولو كانت وراثة لورثها أبو بكر ابنه ولدفعها عمر إلى ولده . فمن أين جئتم بهذه القاعدة الواهية ؟

فإذا تم الاختيار على ما ترتضى المصلحة الاسلامية ، أخذ الخطيب بنوع رقابة أو إشراف يمكنه أن يحيد فيختار من الموضوعات ما يؤذى المسلمين ، أو يكون فيه منفعة للخطيب شخصية ، ويجعله ينتقى أقرب الموضوعات لأحداث الأسبوع ، فيبين فيها حكم الله ، ويأمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر ، بشرط أن يقوم بهذه الرقابة جماعة العلماء أنفسهم ، وألا تمنع إلا ما يخالف الإسلام ومصلحة المسلمين ، وألا تمس حرية الخطيب فيما عدا ذلك ، وإذا تم الحصول على هذه الثمرات من غير رقابة أصلاً فذلك هو الأولى ، وهو ما عليه المسلمون من قديم الزمان

* * *

هذا وإن الموضوع خطير ، ومجال القول فيه ذو سعة ، والواعظون العالمون الصادقون أحق الناس بالكتابة فيه ، فإن صاحب الدار أدرى بما فيها ، وأحسن شىء أن يعطى القوس باريها ، وإننا نسأل الله أن يجعلنا من أهل الإخلاص

على الطنطاوى

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و ٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد .